بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

زكي نجيب محمود ، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ... . هذا اللقب أو هذا التعريف ، الذى اخترناه عنوانًا ، لرحلتنا مع العالم الجليل ، فى ساحة الفلسفة والفكر والفن والأدب ، ليس من عندنا ، وإنما هو لقب ، أطلقه شيخنا العملاق عباس محمود العقاد ، على زكى نجيب محمود ، فى إحدى المناسبات ، وكانت له دلالته ووقعه علينا جميعًا ، فمتى وكيف كان ذلك ؟ ولماذا استعرنا هذا اللقب عنوانًا لكتاب عن أستاذنا الجليل ؟

فى رأيى أن من الأوفق ، أن نترك ذلك لزكى نجيب محمود نفسه ، لأنه أكثر دقة ، وأوضح بيانًا ، من أن يحاول أحد الكشف عن هذه الحقيقة الهامة فى حياته ، وسيرته العلمية والذاتية .

يقول زكى نجيب محمود[1] « عرفتُ العقاد وأنا طالب فى المرحلة الجامعية ، كان ذلك عام ١٩٢٤م ، وكنتُ فى العشرين بينما كان هو فى الأربعين ، لكنه كان يملأ الآفاق الثقافية حُضورًا لا تُغضى عنه عين ولا تستطيع ، ولا تصمّ من دونه أُذُنٌ وهيهات » ، وكان يذكّرنا بالمتنبّى ، وقول المتنبى ، عن نفسه ، وعن العقاد وأمثال العقاد :

---

(١) زكى نجيب محمود : مع الشعراء ٣٥ – ٥٠ القاهرة ١٩٧٧م .

أنا الذى نَظَر الأعمى إلى أدَبى وأسْمَعتْ كلماتى مَنْ به صَمَمُ
أنام مِلءَ جُفونى عن شواردها ويَسْهَرُ القوم جَرَّاهـا وَيختَصم

أما كيف التقى زكى نجيب بالعقاد ، فإننا نسمع قصة اللقاء من صاحبها ، حين يقول فيما يقول[1] : « فى عام ١٩٢٤ ، قرأت له مقالاً فى صحيفة البلاغ ، كان موضوعُها : « الكمال » وقد ختمه بقوله » :

[« ... والخلاصةُ أنّ الكمال لا يتحقق له وجودٌ إلاّ فى الأذهان ، وأن مهمة هذه الفكرة ، إذا ما ارتسمت فى أذهان الناس صورتها ، هى أن تهديهم فى طريق السير ، حتى لا يضلّوا السبيل »] .

« وفُجعت ، نعم فُجعت وأحسست بخيبة رجائى وأحلامى ، فقد كنتُ شابًّا شاطحًا فى سبحات الوهم ، أخلط بين الفكرة وتطبيقها ، وكنت أحسب فيما أحسب ، أن ما يدركه العقل من معانى التسامى ، جديرٌ ، أن تُخرجه الإرادة الثائرة ، من عالم الأذهان إلى عالم الواقع » ، وفكّرتُ فى لقائه ، وفى صحيفة البلاغ بالذات ، لأسأله وأناقشه فى هذه القضية ، ورغم شجاعتى فقد أُحسست بخوف شديد من هذا اللقاء ، وتوقّعت أن يُصيبنى الاضطراب ، ولكنى جمعت شجاعتى ، وسعيت فى أمر لقائه الرهيب .

ووصلت إلى دار البلاغ ، فى صباح يوم دافئٍ من أيام الشتاء المشمسة ، وحين سألتُ عن مكان مكتبه ، دلّونى عليه ، وقصدتُ

---

(١) المصدر السابق .

إلى غرفته ، فإذا هي مفتوحةٌ على مصراعيها ، ليس فيها إلا منضدة بسيطة جدًّا ، عبارةٌ عن مُسَطَّح خشبيّ ، على قوائم أربعة ، وإليها جلس العملاق الكبير على مقعد بسيط « مديد الجذع ، مديد الساقين ، ذراعاه مبسوطتان ، وليس أمامه ورقة ولا إلى جواره كتاب » ، الغرفة عارية الأرض ، عارية الجدران ، خلوٌ من الأثاث ؛ فهأنذا وأنا أتعثر بخُطاى عند بابها ، لا أرى إلا هذا الرجل وحده ... . « هذا إذن العقاد !! » ...

ويمضى زكى نجيب محمود فى متابعته للعقاد إنسانًا ، بعد أن عرفه كاتبًا ، فيجد فيه الصلابة فى الخلق ، والمتانة فى بناء الشخصية ، والجدّ فى تناول الأمور ، وهو هو فى كتابته وفى حواره وفى سلوكه على السواء ، الأنفة والشموخ والارتفاع عن الصغائر ، (إنه الرجل الذى إذا لم يكن له ما يريد ، أبى أن يريد ما يكون)[1] هكذا عرفت العقاد الكاتب والشاعر والمفكر والعقاد الإنسان على حدّ سواء ...

وحين ينطلق زكى نجيب إلى دراساته العليا فى إنجلترا متخصصًا فى الدراسات الفلسفية (العلمية والمنطقية) تطلب منه جامعة لندن أن يشارك فى برنامج شهير هناك يذاع عن طريق شبكة الجبهة العالية ، تحت عنوان : العالم العربى اليوم ، يقدم زكى نجيب محمود ، موضوع العقاد الشاعر ، ثم مختارات من ملحمة الشيطان للعقاد ، مترجمة ترجمة رفيعة ، كانت نتيجة تقديمها ، أنْ « شَقَّ

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

هذا الشعر العربيّ المترجم طريقه بغير جلبة ولا عناء ، إلى صدر المجلات الأدبية فى إنجلترا أولا ثم فى أمريكا ، فكان شاهدًا لى ، ولمن شاء أن يشهدِ ، أننا مع العقاد ، بإزاء شاعر عظيم ، يحتفظ بقيمته فى الترجمة أمام أعين النقاد .. »[1] ، ويعود زكى نجيب محمود ، من بعثته أستاذا فى الجامعة ، لكنه يجد فى مصاحبة العقاد ، حياة فكرية متجددة بالعطاء ، فى صالون الجمعة ، أو فى عضويته بلجنة الشعر والفن بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، مع العقاد الذى كان مقرّرها الرائد الحاكم البصير . الذى يعنينا من هذه الرواية بلسان زكى نجيب محمود أن العقاد ، كان لا يصغى طويلاً إلى حجاج أو معارضة أحد فى آرائه ، إلا مع زكى نجيب محمود ، الذى صدق فى قوله : « وكنتُ من القليلين الذين يحاجّونه (فى كثير من أمور الفكر والفن والأدب) ، لأن العقاد لم يكن يصبر طويلاً على المحاجّة ، لكنى كنت أشعر أنه [رحمه الله] يطيل الصبر معى ليقينهِ فى صدق طويتى وسلامة مقصدى ... »

ومن هنا أكرمه العقاد ، بهذه الثقة العظيمة ، فى حواره أو اختلافه معه فى الرأى ، ثم كان أن يقول عنه وأن يلقّبه بهذا اللقب : فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ذلك اللقب أو التعريف الذى سجّله فى إهدائه ديوانه الشهير الأخير [ديوان من دواوين] لزكى نجيب محمود فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة .. ماذا أريد أن أقول ؟ أريد أن أقول :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠ .

إننى تذكرت هذا ، عندما فكّرت فى كتابة عمل عن زكى نجيب محمود ، بعد ما توقفت طويلاً – قبل وبعد – أمام هذا التعريف من العقاد لزكى نجيب محمود ، وبعد أن عُدتُ لمراجعاتى ودراساتى لكتبه كلها حتى كتابه الأخير حصاد السنين .

وبرزتْ أمامى هذه العبارات الدقيقة لزكى نجيب محمود : « ولقد حبانى الله ميولاً فطرّيةً تَعَدَّدَتْ ، حتى وسعت منطقة التفكير الفلسفى ، وقابلية التذوّق للأدب والفن معًا ، وهو تذوّقٌ قد يعقبه آنا بعد آن ، محاولات النقد القائم على التحليل والتعليل ... ومن هنا ، ترابطت فى مخيلتى الفلسفة والأدب والفن فى رقعة واحدة »[1] عندها ، تأكد لى أن العقاد كان نافذ البصيرة حين أطلق على زكى نجيب محمود ، لقبًا تعريفيًّا فى أربع كلمات : [فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة] ومضيت لأكشف عن شخصية زكى نجيب محمود ، عَبْر إبداعاته التى تعتز بها الساحة الرحيبة ، فى حقول الفكر والفلسفة والعلم والفن والأدب ، موضّحًا منهجه فى موقفه النقدىّ ، ومذهبه الفلسفى ، لأؤكد فى النهاية ، أن هذا المنهج ، وهذا الموقف ، وهذا المذهب ، متواصلاً معًا وجميعًا ، فى وحدة متناسقة متكاملة ؛ كان هو خلاصة النتائج ، التى ترتّبتْ على عقلانية مذهبه فى الفلسفة بوجه عام ، وفى الفلسفة العلمية المنطقية بوجه خاص .

وهذه الدراسة تشمل بابين ، الأول ، عن فيلسوف الأدباء فى ساحة الأدب والفن ، أما الثانى فهو عن أديب الفلاسفة فى ساحة الفلسفة العلمية والفكرية .

ولا أطيل فى مقدمتى هذه ، حتى لا أكرر ما أفضتُ فى عرضه تحليلاً وتعليلاً ، راجيًا من الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل عملى هذا ، إضافة طيبة ، يمكنها أن تفتح نوافذ جديدة فى حقلنا الثقافىّ الرحيب والحمد لله أولاً وآخرًا ودائمًا ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

٢٨ من ذى القعدة سنة ١٤١٣هـ
الموافق ٢٠/٥/١٩٩٣م

د. عبد القادر محمود